(٦) ألصراعات والمصالحة في الكتاب المقدّس «التكوين»

ألمطران أنطوان أودو

عيسو ويعقوب (٢)
من خداع إلى خداع

نتابع مسيرتنا في قراءة «سفر التكوين» ، إنطلاقًا من زاوية الصراعات الأخوية فيه . وإذ نحن نتقدم في السير من رواية إلى أخرى نجد أنفسنا وكأننا نغوص أكثر فأكثر في عالم من الغموض ، يحملنا على التساؤل بشيء من القلق حول مسألة الخداع والكذب التي يلجأ إليها أبطال الرواية . ففي قصة عيسو ويعقوب ، لم يعد الصراع بين الأخوين بسبب البركة ، كما شاهدنا في قصة قايين وهابيل ، ولكن بسبب سرقة البركة .

وعلى الرغم من ذلك يبقى الذي نال البركة مباركًا ، كما هي الحال في قصة يعقوب ! كيف باستطاعتنا أن نقبل ذلك ، والطريقة في نيل البركة فيها ما يحمل على الإندهاش والتمرّد ؟ ولكن علينا أن ننتبه إلى أمر هام في الرواية : فالخداع الذي يلجأ إليه يعقوب سوف ينقلب عليه ، فالخادع سوف يصبح بدوره مخدوعًا ، لا مرة واحدة بل مرات . هل هذا أمر من قبيل المصادفة أم هو عقاب ينهال على رأسه ؟ وربما إن حاولنا أن نكون واقعيين ، قلنا ، إنه طريق بشري يُؤخذ الانسان في تيّاره في سعيه نحو الحقيقة والحرية !

عندما يختبر يعقوب الخداع الذي ينهال عليه ويحمل بسببه جُرحًا في قلبه ، يبدأ رويداً رويداً بالتحوّل إلى أن يصير انسانًا جديداً . في مثل هذه الخبرة يكتشف يعقوب حدوده ، كما أنه كان سببًا في جعل الآخر يختبر حدوده البشرية . لا شك إن مثل هذه الخبرة قد جعلت يعقوب يغيّر نظرته إلى الأمور ، وبالتالي دفعته إلى تقييم الأمور بأسلوب جديد . تتبدّل نظرة الأخوين مع مرور الزمن ، وتتجّه نحو مزيد من المصالحة والقبول المتبادل .

إسحق على حافة القبر

لنبدأ أولاً في الحديث عن الحيلة التي دبّرها يعقوب مع أمّه رفقة . كان اسحق قد تقدم في السن ، واقترب من أجل الموت ، فرأى أنه قد حان موعد إعطاء بركته ، كلمة الحياة ، إلى إبنه البِكر عيسو . فلذلك ، يدعوه ويرفق وعده بإعطاء البركة بطلب له علاقة بالطعام : فقبل

أن يموت ، أبدى رغبته في أن يذوق ، للمرة الأخيرة ، الطعام الذي كان يحبّـه :

« هاءَنذا قد شختُ ولا أعلم يوم موتي ... وصـد لي صيداً وأصلحْهُ لي ألوانًا طيبة كما أحب ، وائتني به فآكل ، لكي تباركَكَ نفســي قبلَ أن أموت » . (تك ٢٧/٢-٤) .

نصادف هنا كما في بداية الرواية (تك ٢٥/٢٨) رغبة إسحق في الأكل من صيد عيسو ، وهو موقف يقرّبه من ابنه البكر الذي كان معروفا بالصيد . ولكن الفعل العبري ، المستعمل للإشارة الى الطعام ، يحملنا على التفكير وعلى طرح هذا السؤال : جذر الكلمة العبرية هو هو كما في العربية «طعَم» وله معنى «الذوق» . ففي العبرية ، يعني هذا الجذر ما يذوقه اللسان وما يتذوقه أيضًا على المستوى الروحي والفكري . في استطاعتنا القول كما هي الحال تمامًا في اللغة العربية . ألا يخطئ اسحق في التمييز بين طعم وطعم ؟ وهل هو طعام الصيد الذي عليه أن يختاره ، أم عليه ان يختار ما له طعم بحسب نظرة إلّهية ؟ ولا سيّما في مجال البركة، فهل ميّز جيداً مَن من إبنيه مؤهّل لنيل البركة ؟ هي مسألة ذوق تفصل بين نظرتي اسحق ورفقة ، هي مسألة ذوقٍ تحمل رفقة على اتخاذ مبادرة الإحتيال على اسحق .

لدينا في الرواية عنصر آخر ، وهو كَـلَـل النظر الذي أصاب اسحق ، فإنه عنصر يُزاد على ما سبق : « ... وكلّت عيناه عن النظر » (تك ٢٧/١) . وباستطاعتنا هنا أيضًا أن نفهم كلل النظر من وجهة نظرين مختلفين ، الرؤية الحسية والرؤية الروحية ، البصر والبصيرة كما اعتادت اللغة العربية على التمييز بينهما . كان من الممكن أن يقال ، عن شخص على عتبة الموت وبالتشديد على صلته بالله ، وعلى الرغم من تقدمه بالسن ، إن نظره لم يَـكِلّ . تلك كانت حال موسى ، خادم الله : « وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة ، حين ماتَ ، ولم يكل بصره ولم تذهب نضرته » (تث ٣٤/٧) .

فعندما يطلب إسحق الصيد من ابنه عيسو وهو يستعمل الجذر الذي أشرنا إليه ، وعندما يوصف هذا الشيخ الطاعن في السن وقد كلّت عيناه ، هي مراحل في طريقة السرد لكي تحملنا على طرح السؤال التالي : هل لإسحق المقدرة على النظر بوضوح والتمييز بين إبنيه ؟ هل في استطاعته أن يرى مَن مِن الأخوين عيسو ويعقوب ، له المقدرة على أن يكون حقيقةً ممثلاً الاخ البكر ؟

تسهر رفقة وتراقب

فبعد أن بدأ إسحق بالإستعداد ، تدخل رفقة إلى الساحة لكي تغيّر مسار الأمور . فبعد أن سمعت ما دار من كلام بين إسحق وعيسو ، تبدأ بالتخطيط ، عن طريق الحيلة ، لكي تصل إلى مأربها . إنها تجد أنه من الممكن أن ينوب يعقوب مناب عيسو ، لأنها - كما كنا قد رأينا - تفضّل يعقوب على عيسو . فها هو يعقوب يتقدم منحنيًا امام أبيه اسحق وبيده طبق الطعام الذي يحبه إسحق . إنه من الواضح أن يعقوب قد اتخذ مكان أخيه عيسو :

« فكلّمت رفقة يعقوب ابنها قائلة : « إني قد سمعت أباك يكلّم عيسو أخاك قائلاً ... والآن يا بنيّ ، إسمع لقولي في ما آمرك به : إمضِ الى الغنم وخذ لي من هناك جديين من المعز جيّدين ، فأعدّهما ألوانًا طيبة لأبيك كما يحبّ ، فتأتي بها أباك ويأكل ، لكي يباركك قبل موته» . (تك ٢٧/٦ و ٨-١٠) .

كان يحتوي موضوع التوأمين إمكانية الخلط بين الأخ والأخ . فالتوأمان شبيهان ومختلفان في آن . إلا أن هناك مشكلة يعاني منها يعقوب فهو أملس الجلد بينما عيسو مكسو كفروة شعر : « ... فقال يعقوب لرفقة أمه : « عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس . فلعل أبي يجسّني فأكون في عينيه كالسّاخر منه ، وأجلبَ على نفسي لعنةً لا بركة» . (تك ٢٧/١١-١٢) .

فإن كُشفت الحيلة تحوّلت البركة إلى لعنة ولم ينل يعقوب ما كان يصبو إليه . إلا أن هناك إمكانية تجاوز مثل هذه الصعوبة ، بواسطة شعر الجدي الذي يكتسي به يعقوب متخذاً شكل عيسو . وعلاوة على ذلك يرتدي الأخ المحتال ثياب أخيه التي فيها رائحته وملمسه : « وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي عندها في البيت فألبستها يعقوب ابنها الأصغر ، وكست يديه وملاسة عنقه بجلد المعز.» (تك ٢٧/١٥-١٦) .

يبدو أن في هذه الحيلة شيء من الغلظة ، إذ يستعمل شعر الجدي لإنابة شخص مكان شخص آخر . يبدو أن الرواية تشير بذلكَ إلى عيسو الموسوم بالعالم الحيواني ، ألم يكن منذ ولادته « كله كفروة شعر» يتقدم إذن يعقوب متنكّراً أمام إسحق والده : « فدخل على أبيه وقال : « يا أبت» . قالَ : « لبّيكَ ، من أنت يا بني ؟» فقال يعقوب لأبيه : « أنا عيسو بكرُك قد صنعت كما أمرتني » . (تك ٢٧/١٨-١٩) .

نلاحظ في هذا المقطع تشديداً على مفردات البنّوة والأبّوة : لدينا في الرواية ٢٤ مرة كلمة «أب» ، والمرّة الوحيدة التي فيها يتوجّه يعقوب مباشرةً إلى إسحق مسمّيًا إياه «يا أبتِ» هي هنا في الوقت الذي صمّم فيه على خداعه .

يطلب اسحق مرتين من يعقوب الاقتراب منه . يستعمل المشهد مختلف الحواس لوصف العلاقة بين الأب والابن . يدور الحديث أولاً على اللمس ، لأن إسحق يحاول أن يتأكّد ان الإبن هو عيسو : فتقدّم يعقوب إلى اسحق أبيه ، فجسّه وقال : « الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو » . ولم يعرفه ، لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه ...» (تك ٢٧/٢٢-٢٣) .

لقد ميّزت الأذن بين الصوتين ، إلا أن اللمس قد خُدع بشعر الجدي الذي اكتسى به يعقوب . ثم يطلب إسحق مرّة ثانية من يعقوب الإقتراب لكي يعانقه قبل أن يباركه . وفي

هذه المرّة ، هي ثياب عيسو ، عن طريق حاسة الشم ، سوف تخدع إسحق . فالثياب قد احتوت في طياتها على رائحة عيسو ، رائحة الحقول :

« فتقدّم وقبّله ، فأشتم رائحة ثيابه وباركه وقال : « ها هي ذهِ رائحة ابني كرائحة حقلٍ قد باركه الرب ... » (تك ٢٧/٢٧) .

الحقد الأخوي

ينتهي المشهد السابق بالبركة التي يهبها إسحق . وبينما كان يعقوب خارجًا يحضر عيسو حضور الصاعقة .

عيسو الصيـاد

ألأخ الواحد يخرج والأخ الآخر يدخل ، ولكن بدون ان يلتقيا ، وسوف يُكشف النقاب عن الحيلة المدبّرة . فما هي الحالة الجديدة التي وصل إليها الأخوان ؟

يعبّر عيسو عن شعوره بدقّة وقوّة . إنه يكره أخاه ، وينتظر موت أبيه لكي ينتقم منه بالقتل : « وحقد عيسو على يعقوب بسبب البركة التي باركه أبوه بها ، وقال عيسو في قلبه: « قد قربُت أيام حزنِ أبي فأقتلُ يعقوب أخي » . (تك ٢٧/٤١) .

عندما تطّلع رفقة على هذه الحالة ، تتخذ المبادرة لإبعاد يعقوب من وجه عيسو . فتدفعه إلى أن يغادر البيت في اتجاه أخيها لابان : « ... والآن ، يا بنيّ ، إسمع لقولي : قم فاهرب إلى لابان أخي في حاران » . (تك ٢٧/٤٣) .

إلا أنه ، كما سوف نرى ، ما ينتظر يعقوب عند خاله لابان هو أيضًا الخداع ، فمن خدع مرات سوف يتحوّل إلى إنسان مخدوع .

الخادع يتحول إلى مخدّوع

لقد انتهى مشهد نيل البركة عن طريق الخدعة التي دبّرها يعقوب مع أمّه ، والآن في مشهد جديد وفي بيت جديد ، بيت لابان ، سوف تتوالى الخدع . عندما توجّه يعقوب نحو بيت خاله لابان توقف في الطريق عند حافة البئر . وهناك ، التقى براحيل إحدى بنات لابان التي كانت قد اقتادت المواشي إلى مياه البئر . ومنذ النظرة الأولى ، أحب يعقوب راحيل وعلق قلبه بها ، وبادر إليها : « فلّما رأى يعقوب راحيل ، بنت لابان أخي امّه ، وغنم لابان أخي أمّه ، تقدّم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم لابان

أخي أمّه . » (تك ٢٩/ ١٠) .

وبعد ذلك يقبّل يعقوب راحيل : « وقبّل يعقوب راحيل ورفع صوته وبكى » . (تك ٢٩/ ١١) .

يستقبل لابان ابن اخته يعقوب على الرحب والسعة ، ولا شك أن صلة الدم قد حرّكت أعمق المشاعر في قلبيهما . وبعد إقامة شهر في هذا البيت الجديد ، لا بُد من العودة إلى المسائل المعيشية الواقعية : فإن أراد يعقوب أن يعمل لدى لابان ، فما تكون أجرته ؟ ولما كان يعقوب مولعًا براحيل ، اقترح عليه أن يعمل عنده لقاء أن ينال يد راحيل : « فأحب يعقوب راحيل وقال : « أخدمك سبع سنوات براحيل ابنتك الصُغرى» . (تك ٢٩/ ١٨) .

ومن شدّة ما كان يحب يعقوب راحيل بدت له هذه السنوات السبع وكأنها قصيرة جداً : «فخدمه يعقوب براحيل سبع سنين ، وكانت في عينيه كأيام قليلة من محبته لها» . (تك ٢٩/ ٢٠) .

وبعد مضيّ السنوات السبع ، تبدأ العائلة بالاستعداد للزواج ، فتنصب الخيام وتبسط الموائد الشهية . ولكن ليلة العرس تُبدلُ أخت بأخت أخرى ، فهي ليئة التي تُزف الى يعقوب وليس راحيل : « وعند المساء ، أخذ ليئة ابنته فزّفها إلى يعقوب ، فدخل عليها » . (تك ٢٩/ ٢٣) .

هناك ملامح عديدة في هذه الحيلة ، تذكّرنا بما كان قد فعل يعقوب ورفقة في الماضي . أولاً تدبّر الحيلة في عتمة الليل ، كما أن عيني اسحق كانتا كليلتين آنئذٍ ، كما أن هناك خلطًا بين ليئة وراحيل كما هي الحال بين يعقوب وعيسو . والمخدوعان اسحق في المشهد السابق ، ويعقوب في هذا المشهد ، تنطلي عليهما الحيلة بسبب ما كان يحبّان ، الأول الطعام الشهي والثاني المرأة التي يحب وهي راحيل .

يُخدع كلاهما عن طريق شخصية تمثّل قرابة دموية قريبة ، فالأول إسحق ، تخدعه إمرأته رفقة وأحد ابنائه يعقوب ، والثاني يعقوب ، يخدعُه خاله لابان بالاتفاق ولا شك مع ابنته ليئة .

لقد استقبل لابان يعقوب بهذه الكلمات : « ... أنت عظمي ولحمي حقًا ... » (تك ٢٩/ ١٤) . وفي الحالتين لدينا إنابة شخص مكان الآخر ، وفي الحالتين ايضًا تنحصر هذه الإنابة بين أخوين وأختين ، ويتخذ الأصغر مكان الأكبر ، وتتخذ الكبرى مكان الصغرى . وفي هذه المعطيات الجديدة المشابهة والمختلفة ، كما سبق ، لا بُدّ ليعقوب من أن يتذكّر أموراً عاشها هو في الماضي القريب .

وعلاوةً على ذلك ، إن اعتبر يعقوب ورفقة أن حيلتهما عادلة وضرورية ، فهذا أيضًا ما يعتقده لابان في تصرفه مع يعقوب . فعندما يكشف النقاب عن حيلته ، وعندما ينبلج الفجر ويتلاشى الظلام ، يقف يعقوب أمام حقيقة الخدعة التي وقعت عليه ، إليك الحوار الذي دار بينه وبين خاله لابان : « فلّما كان الصباح ، إذا هي ليئة ! فقال يعقوب للابان : « ماذا صنعت بي ؟ أليس أني براحيل خدمتك ؟ فلِمَ خدعتني ؟» فقال لابان : « لا يُصنع في بلادنا أن تُعطى الصُغرى قبل الكبرى ... » (تك ٢٩/ ٢٥-٢٦) .

ولشدّة ما كان يحب يعقوب راحيل عمل سبع سنوات أخرى من أجلها لدى لابان والدها . وكان يحبـــها أكثـر من ليئة ، وهذا مما لا شك فيه ، سوف يكون مصدر صراعات جديدة : « ... وأحبها أكثر من حبِّه لليئة ... » (تك ٢٩/ ٣٠) .

خُدعَ إذن يعقوب وعمل مدة أربع عشرة سنة في خدمة لابان ، وهو بعيد عن أهله ، ومع ذلك كله ، لم تنته بعد صراعات يعقوب !

بعد هذه السنوات الطوال ، سوف يقضي يعقوب فوقها ست سنوات أخرى لدى لابان قبل أن يغادره . وإليك ما يقول يعقوب في صدد هذه الإقامة الطويلة لدى لابان ، مع شيء من المرارة والانتقاد : « وها نَذا لي عشرون سنة في بيتك : خدمتك أربع عشرة سنة ببنتيك وست سنين بغنمك ، وغيّرت أجرتي عَشرَ مرات » . (تك ٣١/ ٤١) . وقد حصل كل ذلك ويعقوب يقوم بواجبه على أكمل وجه : « وكان الحر يأكلني في النهار والبردُ في الليل ، وهجر النوم عيني » . (تك ٣١/ ٤٠) .

هل يبالغ يعقوب في أمانته وبراءته ؟ هذا أمر لا يهمّنا في هذا المقام من الرواية . فالأهم هو أنه اختبر الظلم والخداع ، وذلك قبل أن يعود ويلتقي بأخيه عيسو وجهًا لوجه ، الأخ الذي خدعه وانتشل منه البكرية والبركة الوالدية ، لا يستطيع أن يعود إلى بيته وأهله وأرضه بدون أن يقـابل أخـــاه ، ويا له من لقـــاء ومن مجـــابهة مع عيسو الذي سوف يذكّره بالحقيقة !

إلا أن يعقوب سوف يفهم فهمًا باطنيًا ، في أعماق الضمير والقلب ، ما عانى منه عيسو من ظلم وإذلال ، وبهذا ، نستطيع القول : لقد اقترب الأخوان الواحد من الآخر ، وعن طريق الظلم والعنف اللذين استسلما لهما ، يتخذان طريق المصالحة . وكان لا بُـد لعنصر الزمن ولخبـرة الأيام من ان تجعلهما يسيران على طريق النضوج والأخوّة الصحيحة .

(للموضوع صلة)